# مظاهر الصلة بين الهويّة والغيريّة في الشرق الأدنى

الأب نادر ميشيل اليسوعيّ*

في منطقة الشرق الأدنى التي نُقيم فيها، عند ملتقى حضارات مختلفة، وفي مهد الديانات التوحيديّة الثلاث، نسمع بين الحين والحين أحاديث عن الصلة بين الهويّة والغيريّة.

وفي مقالة حديثة تتناول زرع الأعضاء في مصر، صدرت في جريدة الأخبار بتاريخ ١٤ نيسان (أبريل) ٢٠٠٠، قرأنا للدكتور لبيب بدوي، رئيس قِسم الكُلى في كلّيّة الطب التابعة لجامعة عين شمس، عرضًا لمسألة «الموت الدماغيّ» بوصفه من منتوجات الحضارة الغربيّة التي ليس لها إيمان ولا أخلاق. لم يناقش ما لهذا التحديد من مقاييس علميّة، لكنّه أقنع قُرّاءه بفساد هذا التحديد بمجرَّد صدوره من الغرب. وأضاف صاحب المقالة أنّنا، إن أردنا التسليم بالموت الدماغيّ، وجب علينا أن نسلّم أيضًا بالموت الرحيم وبالزواج بين اللوطيّين، كما تفعل المجتمعات الغربيّة.

إنّ هذا لنموذج بين كثير من الخُطَب المماثلة الحاليّة التي يمكننا أن نسمع فيها كلامًا عن الصلة بين الهويّة والغيريّة. نذكر، على سبيل المثال، تلك الخطب التي تقارن أو تميّز بين الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان وحقوق الإنسان في الإسلام، وبين الديمقراطيّة الغربيّة وديمقراطيّة

---

(*) دكتور في الطبّ البشريّ. أستاذ اللاهوت الأخلاقيّ وأخلاقيّات الطبّ والأحياء في كلّيّة العلوم الدينيّة بالسكاكينيّ - القاهرة.

«أنظمتنا القوميّة»، وبين العولمة و«المثال القوميّ» للتحرير الاقتصاديّ، إلخ. قد تثير الملل إن عدّدنا كافّة صِيَغ المظاهر الاجتماعيّة والثقافيّة التي تدخل فيها الصلة بين الهويّة والغيريّة. ولذلك بدا لنا من الأنسب أن نعرض وسيلة قراءة تمكّننا من أن نعيّن ونصنّف أنواع التصرّفات الاجتماعيّة والمظاهر الثقافيّة التي تعبّر عن الصلة بين الهويّة والغيريّة. وهذا ما يساعدنا على أن نحصر بوجه أفضل مختلف المظاهر التي تعبّر عن هذه الصلة، ونوجّه تحليلنا في المستقبل مراحل تكوُّنِ تلك المظاهر، وتفكيرَنا في درسها على أنسب وجه وفي أخذها بعين الاعتبار في عملنا واندماجنا الرسوليّ.

ففي مرحلة أولى، أقترح وسيلة قراءة بشكل مثاليّة (typologie) للعبارتين هويّة/غيريّة، وفي مرحلة ثانية، أُظهر «وظيفيّة» هذه الشبكة في قراءة الأوضاع في الشرق الأدنى، ولا سيّما في مصر، قبل أن أنتهي، على سبيل الخاتمة، ببعض الملاحظات، لمتابعة تفكيرنا.

## ١- مثاليّة عبارات الصلة بين الهويّة والغيريّة

قبل أن أعرض هذه المثاليّة، أسوق بضع ملاحظات في معنى المثاليّة وفائدتها. حين نصف «مِثالًا»، نرسم بالخطوط العريضة تصميم ظاهرة اجتماعيّة كما تبدو. وبهذا المعنى، يمكّننا «المثال» من قراءة وضع اجتماعيّ ومن فهرسته، من دون أن نستنفد حقيقة هذا الوضع. فالمثاليّة تمكّن إذًا من التمييز بين ظاهرة وظاهرة، ومن الملاحظة كيف أنّهما تستطيعان أن تتلاقيا أو تتجانبا أو تتراكبا أو تنتقلا من الواحدة إلى الأخرى. وبكلام آخر، تبدو المثاليّة تصميمًا بالخطوط العريضة، يمكّن من قراءة ديناميّة اجتماعيّة، وبالتالي من الخروج من البلبلة المحتّمة التي تسود في كلّ حركة اجتماعيّة. نضيف أنّنا، في هذا البحث الظواهريّ، نبقى على مستوى تقدير وضع من الأوضاع، أي نفحص كيف يبدو، ولكنّه، في عمل آخر، يجب علينا أن ننتقل إلى مستوى الأسباب، أي أن نرى كيف أنّ تلك الظواهر تتوالد وتتلاقى وتتباعد. وهنا يأتي دور

الأبحاث النفسيّة الاجتماعيّة، والتاريخ العامّ وتاريخ الأديان ولاهوتها، إلى جانب علم الاجتماع والاقتصاد.

إن اتّخذنا، كنقطة انطلاق، ثُنائي الصلة بين الأنا والآخر، نستطيع أن نحصر أربعة أمثلة من الظواهر الاجتماعيّة تتدخّل فيها الصلة بين الهويّة والغيريّة. نحن نعلم بأن ليس هناك «أنا» مجرَّد ومطلق، إذ إنّ الحقيقة البشريّة تنشأ عن لقاء كائنَين، متشابهَين ومختلفَين، الرجل والمرأة. وكلّ كائن بشريّ مدين بحياته للآخرين ومتأثّر بهم. سنصف أمثلة الظواهر الاجتماعيّة، حيث يعبّر الأشخاص المعنيّون بتلك الظاهرة عن أنفسهم ويعرّفونها. وهذا يعني أنّنا نحاول أن نرى طريقتهم الخاصّة في التفكير الذاتيّ، وإن كانت الحقيقة الأنتروبولوجيّة غير ذلك. ومن جهة أخرى، من الواضح أنّ تلك الظواهر تُدخل وتستدعي عناصر دينيّة وثقافيّة وسياسيّة واقتصاديّة. ونلفت الانتباه أيضًا إلى أنّ تلك الأمثلة، إن استُخدمت لقراءة تصرّفات اجتماعيّة، فإنّها قد تُستخدم أيضًا في قراءة تصرّفات فرديّة. ونشير أيضًا إلى أنّ الحقيقة الاجتماعيّة، في مرحلة تاريخيّة خاصّة، تُركَّب من توفيق معيَّن بين أربعة أمثلة، والمطلوب هو أن نرى كيف تنسّق هذه وتظهر.

في جدول يختم هذا القسم، نعرض كيف تبدو الصلة بين الهويّة والغيريّة في الأمثلة الأربعة على عدّة مستويات. لكن من الواضح أنّنا سنجد دائمًا، لأنّنا في وصف مثاليّ، حقائق اجتماعيّة فرديّة أو جَماعيّة لا تطابق جميع النقاط.

ففي المثال الأوّل، يحدَّد الأنا بأنّه أفضل من الآخَر الذي هو مختلف ومتميّز تمامًا. بهذا المعنى، لا يحتاج الأنا إلى أخذ أيّ شيء عن الآخَر، بل إلى أن يأتيه بكلّ شيء. فنظرته إلى الآخر هي قاسية، لا بل ساخرة، وهو، في المقابل، راضٍ عن نفسه. فبالنسبة إلى الأنا، ليس للآخَر أيّ مبرّر للوجود، إلّا أن يُصبح كالأنا. لا يُعترَف للآخَر بالوجود، وإذا قُبِل على مضض، لا يُعترف به على حقيقته. هذا والخطر هنا أن يُعَدّ

الأنا المقياس الوحيد. وإذا سُئِم الأنا بوجود ثغرات في تأوين حاضره، يدّعي دائمًا وجود وسائل في ماضيه توفّر له إمكانيّات في المستقبل. وهذا يعني أنّ الحاضر يبدو ملطّفًا والماضي موسومًا بالكمال المثاليّ والمستقبل ممجّدًا.

وفي هذا المثال الأوّل، يسود البُعد الدينيّ عمومًا، فيُحدَّد الأنا بوجه خاصّ انطلاقًا من انتمائه الدينيّ الذي يؤثّر في خطابه وتصرّفاته الخارجيّة، في حين يُحَطّ من قدر الآخر بسبب فارقه الدينيّ، وهو، في هذا الأمر، يُسخَر به في أغلب الأحيان. إنّ الهويّة الثقافيّة تحدَّد قبل كلّ شيء بالبُعد الدينيّ، وهو يشمل التراث القوميّ ويصحّحه ويوجّهه، فنفضّل اللغة الأصليّة التي كُتبت فيها النصوص الدينيّة، ونحاول أن نرفع مستوى تلك اللغة. وفي هذا الإطار، فإنّ الباب منفتح للمزايدات، لتجعل مختلف وجوه الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة تتأثّر بالبعد الدينيّ.

وعلى المستوى السياسيّ، يوصَف الآخر وكأنّه تهديد دائم، ولا سيّما بسبب بُغضه دين الفئة الاجتماعيّة التي يمثّلها الأنا. وبمعنى من المعاني، هناك تطابق بين الفئة الاجتماعيّة ودينها، إذ إنّ الفئة تحدَّد، قبل كلّ شيء، بهويّتها الدينيّة. والآخَر أيضًا يهدِّد الاقتصاد القوميّ، علمًا بأنّ «الأنا» يستقي من موارده المتأثّرة، ولا شكّ، بالبعد الدينيّ، ويدّعي أنّ عنده نموذجًا اقتصاديًّا يحلّ جميع مشاكل المجتمع. ونضيف أنّ تلك النماذج الاقتصاديّة والسياسيّة لم تحقَّق حتّى اليوم ولم تُمتَحَن. وهي تتّسم إلى حدّ بعيد بالحُلم أو الخيال.

وفي المثال الثاني، يُعتبَر الأنا مختلفًا عن الآخَر، وغيرَ مبالٍ بما يعيشه هذا الآخَر. هناك، بوجه خاصّ، تجانُب بين الاثنين، إذ إنّ كلًّا منهما يقوم بأعماله، كما لو كان الآخَر غير موجود. إنّ هذا التجاهل المتبادل، أو تجاهل أحد الطرفين للآخَر، قد يكون ثمرة وضع تاريخيّ وجغرافيّ، ولكنّه قد يكون مقصودًا كتثبيت للشخصيّة وحماية النفس من الآخر. وفي المثال الثاني هذا من الصلة، لا يعرف الواحد مكاسب الآخر

وتقدّمه، كما أنّ مصالح الواحد وحاجاته يجهلها الآخر. قد يكون هناك نقاط تلاقٍ في بعض الأحيان، لكنّها لا تؤثّر فوق الحدّ في مجرى الأمور. ويمكن أن يكون البعد الدينيّ هامًّا في تحديد الذات، وإن لم يكن هذا البعد مميِّزًا، يتقل إلى خيارات سياسيّة أو ثقافيّة ثابتة متصلّبة. وفي هذا الإطار، تميل البنية الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة إلى الانغلاق على نفسها وإلى الانتظام في العزلة.

وفي المثال الثالث، يعترف الأنا بأنّه مختلف عن الآخر، ولكنّه يرى وجوده الخاصّ في صلة بالآخر. فهو يتحدّث عن الحوار واللقاء المثمر والنظرة النقّادة إلى نفسه وإلى الآخَر. إنّ الانفتاح يحدِّد بنية تنظيم الحياة الاجتماعيّة، لكنّه ينسجم مع رفع قيمة التراث من دون تعصّب أو صلابة. فاللغة القوميّة تكرَّم، لكنّ لغة الآخَر تُعلَّم أيضًا. هناك امتزاج ثقافيّ واغتناء للأدب خصوصًا والفنّ عمومًا. هذا وإنّ التنظيم السياسيّ يستند إلى مبادئ الديمقراطيّة، في حين أنّ الاقتصاد هو ليبرالي بالأحرى، وإن كان يتكيّف مع الوضع الاجتماعيّ. فالتقدّم العلميّ والصناعيّ عند الواحد يستغلّه الآخَر، وهذا شأن الغنى الثقافيّ والتاريخيّ عند الواحد أو الآخَر. والعنصر الدينيّ له منزلته في وضع البنية الشخصيّ والجَماعيّ، ولكنّه لا يتعدّى على التنظيم الاجتماعيّ والسياسيّ.

وفي المثال الرابع، يحسد الأنا الآخَر ويريد أن يُصبح مثله: فالآخَر هو، إذا صحّ القول، مثال الأنا الأعلى. «أن يكون كالآخَر» هذا ما يشتهيه الأنا. نحن أمام نموذج تقليد الآخر والتطابق معه. إنّه نوع من إنكار الذات. من وجهة النظر الثقافيّة، تُصبح اللغة «الأجنبيّة» الأكثر استعمالًا، والأعراف والعادات تتّبع النموذج الآتي من مكان آخر. فالسياسة هي في خدمة اقتصاد استهلاكيّ، والدين لا يشترط العلاقات الاجتماعيّة إلّا قليلًا. والخير الفرديّ يتفوّق على الخير العامّ، والبحث عن السعادة الفرديّة هو قيمة أُولى.

جدول عرض الأمثلة الأربعة للصلة بين الأنا والآخر مع انعكاساتها الثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والاجتماعيّة

| | | المثال ١ | المثال ٢ | المثال ٣ | المثال ٤ |
|---|---|---|---|---|---|
| ١ | الصلة الأنا/ الآخر | الفرق المرفوض | الفرق المُنكَر | الفرق المعترف به | الفرق المرغوب |
| ٢ | منزلة الدين | +++ | ++ | + | +- |
| ٣ | الثقافة | ثقافتنا | القوميّة | اللقاء والحوار | تقليد الآخر |
| ٤ | اللغة | اللغة الدينيّة | لغة البلاد | تعدّد اللغات | اللغة الأجنبيّة |
| ٥ | إسهام التاريخ | ماضٍ موسوم بالكمال المثاليّ | «اليوم» موسوم بالكمال المثاليّ | الذاكرة الحيّة | فقدان الذاكرة |
| ٦ | الاقتصاد | «اقتصادنا» | حماية التجارة | ليبراليّة إنتاجيّة | ليبراليّة استهلاكيّة |
| ٧ | السياسة | «نظامنا» | الحزب الوحيد | الديمقراطيّة | النفعيّة |
| ٨ | تنظيم المجتمع | التضامن الجماعيّ | اشتراكيّة الدولة | الاشتراكيّة التعاونيّة | الفرديّة |

## ٢- تطبيق هذه المثاليّة في الشرق الأدنى

في الشرق الأدنى، يمكننا أن نلاحظ وجود المثال الأوّل في التيّارات والأنظمة التي تحت النفوذ الدينيّ، والمثال الثاني في الأنظمة القائمة على السلطة. والمثال الثالث لا يعني الأنظمة، بل بعض الفئات والجمعيّات الناشطة في بلدان المنطقة. أمّا المثال الرابع، فقد يلاحَظ عند بعض الفئات الاجتماعيّة هنا وهناك.

وفي الأوضاع الحاليّة القائمة في مصر، يمكننا أن نلاحظ أهمّيّة المثال الأوّل في لغة الأصوليّين المسلمين والمسيحيّين وممارساتهم،

والمثال الثاني في العلاقات القائمة بين مختلف الفئات الاجتماعيّة، مثلًا بين سكّان المدن والأرياف، أو بين سكّان القاهرة والصعيد، أو بين المقيمين في أحياء مختلفة بالقاهرة. والمثال الثالث يعني بعض الأفراد ومجموعات صغيرة من النُخب. أمّا المثال الرابع، فإنّنا نلاحظه عند بعض الشبّان في موقفهم من كلّ ما يأتي من الولايات المتّحدة.

وفي تاريخ مصر في القرن العشرين، لاحظنا حيويّة المثال الثالث في النصف الأوّل من القرن. كان هذا «المثال» يضمّ صحفيّين وشعراء وكتّابًا وصناعيّين وعلماء عملوا على النهضة الأدبيّة والفنّيّة وأثّروا إلى حدّ بعيد في الحياة الثقافيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، في مصر وفي المنطقة. وفي الفترة الزمنيّة نفسها، ظهر المثال الأوّل مع ظهور الإخوان المسلمين، لكنّ هذا المثال لم يُصبح على جانب من الأهمّيّة إلّا انطلاقًا من السبعينيّات في القرن الأخير. وعلى عكس ذلك، ساد المثال الثاني في ستّينيّات القرن نفسه، في حين لم ينقطع المثال الرابع عن الوجود، مع أنّه كان يعني فئات أقلّيّة.

## الخاتمة

من الواضح أنّ المثال الثالث يشكّل مثلًا أعلى إلى حدٍّ ما في العلاقات الاجتماعيّة، وهذا لا يعني أنّه لا يمكن أن يُؤَوَّن حقًّا في أيّامنا. وأمّا سائر الأمثلة، فهناك، في يوم من الأيّام، مثال يسيطر على حساب الأمثلة الأُخرى. وفي تلك الأوضاع، نشاهد تغييرات سريعة في موقف بعض الناس، فيتنقّلون، بطريقة انتهازيّة، من مثال إلى مثال، بحسب سيطرة التيّار الغالب.

إذا كانت الحياة البشريّة مكوَّنة من لقاءات ومن انصهار الكائنات البشريّة والأفكار والحضارات والثقافات، فإنّ المثاليّة التي عُرضت أعلاه تبيّن كيف أنّ الصلة بين الهويّة والغيريّة يمكن أن تُدرَك أو يعبَّر عنها. ما عدا المثال الثالث، فإنّ سائر الأمثلة، كلّ واحد على طريقته، تختزل الحقيقة البشريّة ولا تمكّن الأعضاء المنتسبين إلى مثالهم من الانشراح حقًّا

بصفتهم كائنات بشريّة. وفي تلك الأمثلة، نجد، في آن واحد، اختلال الأنا والآخَر، وإنكار ما هو بشريّ في جوهره والصلة بين الأنا والآخَر. والطريق إلى الإنسانيّة، الذي ينفتح أمام الأفراد والمجموعات، هو طريق الاعتراف بجميع الغَيريّات التي تبني هويّتها. ولكن لا نَنْسَ أنّ هذه الغيريّات أمكن إدراكها، في إحدى مراحل التاريخ، كتهديد لِهويّة معيَّنة، اعتُبرت ناجزة أو جامدة، وأصبحت بنّاءة في مرحلة لاحقة من التاريخ. وبعبارة أخرى، يثير لقاء غيريّة ما ردودَ فعل من الأمثلة التي وصفناها أعلاه. قد تتنوّع في التعبير الاجتماعيّ عنها، من مثال إلى مثال، بحسب ظروف الساعة التاريخيّة التي تمّ فيها ذلك اللقاء.

إنّ هذه المثاليّة هي محاولة لتفهّم الظواهر الاجتماعيّة التي تكشف عن الصلة بين الهويّة والغيريّة. إنّها أداة بين أدوات أخرى لإدراك الحقيقة المتشعّبة التي تعيش فيها مجتمعاتنا. ولكنّه من الواضح أنّ تلك المثاليّة هي في حاجة إلى أن تُستكمَل على مستويَين. أوّلًا في ما يختصّ ببنيتها القائمة على تحليل الظواهر الاجتماعيّة، ومؤهّلاتها «الوظيفيّة». ثمّ في ما يختصّ بدرس أسباب ظهور تلك «الأمثلة» وثباتها ومصيرها. فإنّ هذه المثاليّة تمهّد السبيل، إذا صحّ القول، إلى درس الديناميّة التي تحرّك مجتمعاتنا، وإلى درس مختلف «أمثلة» الصلة التي تحرّك تلك الديناميّة.

وهذا ما يحملنا على أن نرى، بصفتنا يسوعيّين، كيف نحدّد موقفنا من مختلف «الأمثلة»، وعلى أن نفهم ما هو دورنا على وجه أفضل، آخذين بعين الاعتبار مواردنا الشخصيّة والمؤسّساتيّة. بناء على ذلك، ليس من الواضح تمامًا أن نقول في أيّ مثال نضع أنفسنا، حتّى إن كنّا نرجو أن نكون من المثال الثالث. إنّنا نشارك في مصير الناس الذين نعيش معهم، ونحن أنفسنا تُحرِّكُنا وتُجرِّبنا بين حين وآخر تلك الأمثلة الأربعة. فلا بدّ لنا، على المستوى الفرديّ والجماعيّ، أن نوضّح ذلك لنحدّد موقفنا، على وجه أفضل، فيما بيننا وأمام الآخرين، بطريقة مشرّفة ومثمرة.

وفي النهاية، نحتاج إلى أدوات تحليل وتفهّم للظواهر الاجتماعيّة،

لكي نوجّه عملنا ونُرشد توجيهاتنا الفكريّة والرسوليّة. «فالحوار» الذي ندعو إليه و«العمل على الحدود»، الذي توجّهنا رهبانيّتنا إليه، يقتضيان من قِبَلِنا تفكيرًا مجدَّدًا في الحقيقة الاجتماعيّة والتاريخيّة التي نخوضها، إلى جانب استعراض نهجنا الحاليّ. إنّ الكنيسة في الشرق الأدنى تنتظر منّا مساعدة على هذا المستوى، من حيث التحليل، وعلى الأرجح على مستوى النصائح العمليّة، لتقوم بدورها بوضوح وجرأة وذكاء.

## صدر عن دار المشرق